العدد السابع والعشرون
1434 هـ / 2013 م

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكّمة - تصدر سنويًا

1434 هجرية 2013 ميلادية

- من أسس بناء الشخصية الإنسانية من منظور تربوي إسلامي.
- المجاهد أحمد الشريف السنوسي ودوره في حركة الجهاد الليبي.
- بعض معالم الثقافة المقاصدية للإمام عبد الملك الجويني.
- نصوص للمستشرقين أنصفوا فيها الإسلام.

قضايا في تجربة درويش الشعرية

الحلم – الفقد – فلق الصبح

قراءة في ديوان أحد عشر كوكبا
للشاعر محمود درويش

د. أحمد محمد الجرم
جامعة مصراتة- ليبيا

العنوان: معناه ومدلوله:

ديوان أحد عشر كوكبا له دلالات سياقية وتركيبية؛ فالدلالات السياقية تحيلنا لرؤيا يوسف عليه السلام، لأن الرؤيا الصادقة من دلائل النبوة، وكان صلى الله عليه وسلم لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكذلك فإن للشعراء رؤى وأحلاما تمكنهم بما سيحدث مستقبلا، لقدرتهم الخارقة على ربط الأحداث بمحدثاتها والأسباب بمسبباتها، لذا نجد شاعرنا في حالة ترقب دائم وخوف من المجهول القادم.

فالذي جعل رؤى الشاعر تتبلور في الدالة أحد عشر كوكبا ربما لأنها تحيل الذهن إلى رؤيا يوسف عليه السلام، فقد توحدت رؤى الشاعر مع رؤى يوسف عليه السلام وسيلة وغاية، إلا أن هذه الرؤى ظلت تحمل في طياتها مفارقات جوهرية.

ويمكن توضيح هذا الأمر من خلال الجدول التالي:

الدالة	يوسف عليه السلام	الشاعر	نوع العلاقة
الكواكب	سجدت له الكواكب	أنارت له الطريق	مفارقة
الأمل	بنى آماله في بلاد جديدة	يسعى لبناء آماله في وطنه	مفارقة
موقفه	الصفح على إخوته	الغضب على أفعال رموز قومه	مفارقة
مرحلة التآمر	أبعد عن وطنه قسرا	أبعد وشرد عن وطنه	موافقة
مرحلة الجب	عانى كثيرا من المشاق	كابد آلامه وآلام شعبه ولا زال	موافقة
مرحلة الانتظار	تحققت رؤياه	يأمل في تحقيقها	موافقة

أما دلالة العنوان التركيبية فتتمثل في إشارات حبلت بها قصائد الديوان مما يجعل الكواكب رمزا لما حدث في الأندلس اصطبغت بملامح أندلسية، استلهمت مواقف وأحداث واقعية، جعلها كواكب تومض هذا الوميض الذي يستخدم في تحذير الطائرات من الاصطدام بمبنى شاهق أو أعمدة الاتصالات التي تعانق السحاب، بل لتذكرنا بتلك الأضواء المتلألئة في مدرج المطارات لكي تَهدي الربان إلى مساره الصحيح؛ يفتح الشاعر باب الأمل على مصراعيه؛ يحمِّل العنوان دلالات تحذيرية خوفا من نتائج مشابهة في وضعية وأحداث مماثلة تحدث على أرض فلسطين.

الشاعر لا يريد أن يرثي فلسطين كما رثى الشعراء الأندلسيون بلادهم، فالرثاء فاجعة، نهاية، لا عودة، الشاعر في هذا الديوان يبكي وطنه من خلال رثاء الأندلس، ومع ذلك فيريد أن يزرع الأمل، ينتظر صبحا ينبلج مسفرا عن يوم جديد، يتنفس من خلاله الحرية والكرامة.

ومع ذلك فإن رثاء المدن يعد من أدب المراجعة، الذي يمكن أن تقف فيه الأمة على أخطائها، وعلامات انتكاساتها، وأسباب تعثرها وكبواتها في الماضي، لتقف على قدمين راسختين في الحاضر والمستقبل، وتجتنب تلك المزالق التي وقعت فيها في السابق[1].

استدعاء الأندلس في شعر درويش:

إن الأندلس ارتبطت بوجدان الشعراء العرب قدامى ومحدثين، كل ينازع نفسه، ويثير فيه كوامن الشجن ذلك الفقد، لكن ومع أن الفتح الإسلامي كان قد امتد إلى أرجاء عديدة من بلاد المعمورة، ووصل إلى بلاد السند والهند وانحسر الوجود العربي هناك كما انحسر في الأندلس، إلا أن الشعراء لم يعيروا بلادا فقدوها أو تحسروا على فقدها كما حصل مع الأندلس؛ فلماذا الأندلس دون غيرها؟

(1) رثاء المدن في الشعر الأندلسي، عبدالله محمد الزيات، الطبعة الأولى 1990، منشورات جامعة قار يونس بنغازي – ليبيا، ص: 18.

لعل أسبابا عديدة أسهمت في هذا الاهتمام، من بينها أن بعض الشعراء المحدثين يرون في الإسبان سكان الأندلس ما هم إلا عرب عاشوا في بلاد الأندلس التي شيدوها وعمروها، ولا زالت ملامحهم تنم عليهم[1]، خلافا للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا (Julian Ribera) الذي يرى أن الأندلسيين ليسوا إلا إسبانا مسلمين، فهم ليسوا عربا وليسوا شرقيين، وإنما هم إسبان وغربيون، دينهم الإسلام ولغتهم العربية[2]، ومع ذلك فهناك "روابط لا تنفصم بين العرب في بلدانهم الآن وبين تاريخهم وآثارهم التي خلفوها في الأندلس، على الرغم من أن ذلك التاريخ قد مضى وانقضى... لكن الحنين إليه والحسرة على زواله تثير في النفس المرهفة كوامن الشجن"[3]. يقول نزار قباني:

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا	ما أطيب اللقيا بلا ميعاد
عينان سوداوان في حجريهما	تتوالد الأبعاد من أبعاد
هل أنت إسبانية؟ ساءلتها	قالت: وفي غرناطة ميلادي
غرناطة، وصحت قرون سبعة	في تينك العينين بعد رقاد

يعبر درويش عن حاضره ولكنه يستشعر ذلك الماضي البعيد، كأنه يريد أن يقول: لا غرو أن أبكي وطني، فقد بكى البشر والحجر أوطانهم، فالأندلس المتمثلة في غرناطة لا زال جرحها يدمي رغم بعد الشقة، والقلوب تتفطر حزنا كلما عنت لها.

(1) انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، طبعة 1394هـ 1974م، دار الكتاب العربي بيروت- لبنان ج 3 ص 258، 259.

(2) Julian Ribera: Disertación y opusculos, vol. I, pp.12 ff. نقلا عن كتاب الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل، الطبعة السادسة 1979 دار المعارف القاهرة- مصر. ص: 33.

(3) الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني بعد المأساة، د.أمين صالح محمود العمصي، الطبعة الأولى 1995 منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ليبيا، ص: 164.

أن حديثه عن واقعه لم ينسه الحديث عن الماضي، عن الأندلس قديما وحديثا، عن الغريب سواء أكان عربيا عاش بروح أندلسية قديما، أم أندلسيا عاش بروح عربية حديثا[1]. يقول درويش:

مر الغريب
حاملا سبعمائة عام من الخيل، مر الغريب
ههنا، كي يمر الغريب هناك، سأخرج بعد قليل
من تجاعيد وقتي غريبا عن الشام والأندلس
هذه الأرض ليست سمائي، ولكن هذا المساء مسائي
والمفاتيح لي، والمآذن لي، والمصابيح لي، وأنا
لي أيضا. أنا آدم الجنتين، فقدتهما مرتين
فاطردوني على مهل،
واقتلوني على عجل،
تحت زيتونتي
مع لوركا..

قراءة في قصائد الديوان:

الشاعر يحمل الحلم، ويخلق الرؤيا، يجمع بين الداخل والخارج، يقوده في ذلك الإلهام والتنبؤ، يعيش الوسط والمحيط، ويستوحي التراث؛ ولو تتبعنا ديوان أحد عشر كوكبا لوجدنا الحلم والفقد وفلق الصبح يتكرر بنسب متفاوتة تبعا لحالة الشاعر النفسية وما يحيط به من متغيرات، تجرفه أحيانا إلى اليأس، وتفتح أمامه بصيصا من الأمل سرعان ما يجرفه تيار الواقع إلى دوامة الفقد:

(1) لوركا وبيروت؛ جهاد فاضل، جريدة الرياض، الخميس 15 ربيع الأول 1427هـ- 13 أبريل 2006م - العدد 13807.

ديوان أحد عشر كوكبا		مرات التكرار		
ر.م	عنوان القصيدة	الحلم	الفقد	فلق الصبح
.1	في المساء الأخير على هذه الأرض	2	6	2
.2	كيف أكتب فوق السحاب؟	1	5	2
.3	لي خلف السماء سماء ...	1	8	1
.4	أنا واحد من ملوك النهاية	1	6	1
.5	ذات يوم، سأجلس فوق الرصيف	-	3	4
.6	للحقيقة وجهان، والثلج أسود	-	8	4
.7	من أنا ... بعد ليل الغريبة؟	3	4	2
.8	كن لجيتارتي وترا أيها الماء	-	4	5
.9	في الرحيل الكبير أحبك أكثر ...	-	5	5
.10	لا أريد من الحب غير البداية	1	1	10
.11	الكمنجات	-	10	-
إجمالي عدد التكرار		9	60	36

تصنيف المعاني:

المعاني الخاصة بالحلم:

بعض هذه الأفكار كانت منبع سعادة وفرح للشاعر، ولكن تحولت بعد ذلك إلى حديث ذكريات، هذه الذكريات صارت هاجسه الأول، فهي أيام قد انقضت وانصرمت كما قال ابن زيدون:

يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سراقا[1]

ومع ذلك فظل البديل الذي يراوده هو الحلم، واللجوء إلى الحلم يصب في اتجاهين متباينين ظاهرا، متفقين باطنا، وهذان الاتجاهان هما:

(1) أبوالوليد ابن زيدون: دراسة ومختارات، عبداللطيف شرارة، الطبعة الأولى 1988م، الشركة العالمية للكتاب، بيروت. لبنان، ص: 95.

1. التخفيف على النفس المثقلة بالهموم والأحزان، والتسري عنها، باستحضار الأيام الخوالي وما تحمل في طياتها من ذكريات عطرة ومعاني حيوية، وبما تبعثه من دفء وحنان، وذلك يضفي على الحياة دفقة شعورية جديدة تمكنه من مواصلة النضال والكفاح.
2. العمل على تحقيق هذه الأحلام، أو بمعنى آخر محاولة استعادة الذكريات، والعمل على ترميم ما ضاع منها ومحاولة بعثه من جديد.

فلو تتبعنا قصائد الديوان في إطار تصنيف المعاني الخاصة بالحلم أو بتلك التي تمتلك خاصية الحب والسعادة سواء المفقودة منها أو المأمولة، لوجدنا إشارات واضحة عن الحلم وما يحمل في طياته من حب وسعادة، فقصيدة "في المساء الأخير على هذه الأرض" نجد العديد من المعاني التي تمثل ذكريات لها طعم خاص لديه، فقد كان يعيش حياة هانئة، ينعم بدفء الطبيعة، ويرتمي في أحضانها، تحفه الأشجار وتفجر الجبال في نفسه مكنونات التأمل، ويظلله الغيم الذي ينبت الأمل في النفس: نقطع أيامنا عن شجيراتنا/ نتملى الجبال المحيطة بالغيم؛ بل كان يستحضر مرابع لهوه وسروره، وأماكن سمره وسهره، ومجالس الأنس والغناء مثل قوله:

فادخلوا أيها الفاتحون منازلنا، واشربوا خمرنا
من موشحنا السهل، فالليل نحن إذا انتصف الليل
شاينا أخضر ساخن فاشربوه، وفستقنا طازج فكلوه
والأسرّة خضراء من خشبة الأرز.
تنبؤ بما بعد المؤامرة؛ والنهاية تمشي إلى السور واثقة من خطاها.

المعاني الخاصة بالفقد:

في القصيدة الأولى من الديوان: "في المساء الأخير على هذه الأرض" لا يقوم الشاعر بإعداد الأمتعة التي سيحملها معه في رحلته، ولكنه يشير إلى أنه سيترك الكثير من الأشياء العزيزة على نفسه والتي يستحيل حملها، المتمثلة في الوطن، ذلك الوطن الذي ضمخت تربته دماء الآباء والأجداد، واحتضن رفاتهم

منذ أزمان، لذا يستحيل إحصاء من قدم تضحيات لهذا الوطن، وانتماؤهم له ضارب بجذوره في أعماقه، لذا يستحيل نزعها، كما لا يمكن التفريط فيه بحال من الأحوال. يقول درويش:

في المساء الأخير على هذه الأرض نقطع أيامنا
عن شجيراتنا، ونعد الضلوع التي سوف نحملها معنا
والضلوع التي سوف نتركها، ههنا ... في المساء الأخير[1].

فمعاني الفقد وزعت في هذه القصيدة، وهي عديدة، جميعها يبعث على الحزن والحنين، مثل: نقطع أيامنا، ننتهي، المساء الأخير، نودع، الهباء، لا فجر، فاستسلموا، الحصار.

بينما تتشكل المعاني في قصيدة: "كيف أكتب فوق السحاب" لتعبِّر عن واقع مرير يحمل في طياته عالما مليئا بالحزن على ذلك الفقد الذي عصف بكيان الشاعر مرتين الأولى في ماضيه الأندلس، وذلك بحنينه إليه، والثاني في حاضره الفلسطيني، وذلك بالترقب لانبلاج الصبح؛ من تلك المعاني: وصية أهلي/ يتركون الزمان/ يتركون معاطفهم في البيوت (دليل الموت والمغادرة حيث اللاعودة)/ كلما شيدوا قلعة هدموها (خراب، أطلال، زوال، فقد في أشد صوره)/ يرفعوا فوقها خيمة للحنين إلى أول النخل (سرادقات للعزاء لتلك التي عانت الغربة كما عاناها شاعرها عبد الرحمن الداخل إذ يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن أرض النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والنتأى مثلي[2]

(1) الأعمال الشعرية الكاملة، محمود درويش، الطبعة الثالثة 2008، د.ن، د.م. ص:553.
(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقّري التلمساني، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الطبعة الأولى 1419هـ 1998م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 327/3.

أهلي يخونون أهلي/ في حرب الدفاع عن الملح (الثروة التي كانت شريان الحياة في الماضي، ويقاس النصر والتقدم بمقدار ما تمتلكه الشعوب من هذه المادة، فهو أشبه ما يكون بالنفط إن لم يكن أفضل، مما يدل على نضوب سبب الحياة المفضي إلى الفقد، الموت الهلاك، زاد الأمر سوءا ملازمة الفقد للخيانة، فهي فقد ثان، وخيانة الأهل أكثر مرارة فهي فقد ثالث؛ يقول طرفة بن العبد:

فظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند[1]

فضة الدمع: (صورة جمعت بين الماضي في صفائه ولمعانه وبياضه وبين الحاضر في حزنه وبكائه ورثائه/ غرناطة جسدي/ غرناطة بلدي/ لتبني الحساسين من أضلعي درجا للسماء القريبة/ غني فروسية الصاعدين إلى حتفهم قمرا قمرا/ ليلها الحار/ لا صباح/ رحيلي.

من المعاني التي اعتمد عليها في قصيدته: "لي خلف السماء سماء" معاني الحلم وما يحمله في طياته من معاني الخوف من المجهول، وما يترتب عليه من الفقد، وبقدر ما هو موقن بذلك الغيب الذي يبصر تباشيره بقدر ما يترقب المعجزات في انفراج هذه الأزمة، من هذه المعاني: وأحيا ساعة تبصر الغيب/ أعرف أن الزمان لا يخالفني مرتين/ أعرف أني سأخرج من رايتي/ سوف أخرج من كل جلدي، ومن لغتي/ سأخرج بعد قليل من تجاعيد وقتي غريبا عن الشام والأندلس/ أنا آدم الجنتين فقدتهما مرتين/ فاطردوني على مهل/ واقتلوني على عجل.

قصيدة "أنا واحد من ملوك النهاية" تحمل صورا مكثفة مستمدة من ماضي الأندلس الحزين، تعالق هذا الحزن مع الحسرة والندم على التفريط، شعور بالذنب يطال الجميع كل حسب دوره ومسؤولياته: ملوك النهاية/ زفرة العربي الأخيرة/ قبلت معاهدة التيه/ خشخشة المفاتيح/ وداعا لتاريخنا.

(1) شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي تحق: فخر الدين قباوة، الطبعة الرابعة 1400-1980، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان، ص: 146.

في قصيدة: "للحقيقة وجهان والثلج أسود" فقدٌ تشوبه روح المؤامرة، وخطيئة الخيانة، والتفريط في حق الوطن، هذه صفات المنافقين "يقولون ما لا يفعلون" و"ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها"؛ وحقيقة الشاعر لها وجهان، ومن يعرف الحقيقة يزول اللبس والتناقض، ونقبل بالعديد من المعاني وبأن الثلج أسود/ لم نعد قادرين على اليأس/ والنهاية تمشي إلى السور واثقة من خطاها/ من سينزل أعلامنا؟/ من سوف يتلو علينا معاهدة اليأس يا ملك الاحتضار؟/ لم نستطع أن نفك الحصار/ فلنسلم مفاتيح فردوسنا لرسول السلام.

الدلالات الدفينة في قصيدة: "من أنا بعد ليل الغريبة" لا تغادرها إلا لتعود إليها، دلالة الفقد واضحة تطل علينا من خلال المعاني الدالة عليه: ليل الغريبة/ غموض النهار/ عتمة الشمس/ هواء يمشط صفصافة/ حاضر لم يعد حاضرا/ عالم لم يعد عالمي/ واقع لم يعد واقعا/ سوف أسقط من نجمة في السماء إلى خيمة في الطريق/ شارع لم يعد شارعي/ لا أستطيع الرجوع/ لا قلب للحب أسكنه.

كما أن تأثير الماضي على الشاعر قوي، يشعره بالألم والحسرة، ووقعه عليه عظيم، فهو يحمل دلالات تتفطر لها الأكباد فما بالك برهافة مشاعر الشاعر ورقة أحاسيسه، تجسدت هذه المعاني في العديد من ألفاظ قصيدته "كن لجيتارتي وترا أيها الماء" مثل: ومضى الفاتحون القدامى/ كي أرى ما فقدت/ الرحيل الجماعي/ هضاب تطل على ما مضى وانقضى/ تشيعني خلف سور المدينة/ عبثا يستدير الزمان/ منفاي فيّ وفي الآخرين/ ركام التحول/ لم يبق لي غير جيتارتي.

بل تتعدد وسائط الفقد في معاني القصيدة نفسها، حتى صارت الأندلس رمزا للفقد في كل مكان، مثل: لا مصر في مصر/ لا فاس في فاس/ والشام تنأى/ ولا صقر في راية الأهل، وإلا لبقيت علية خفاقة/ لا نهر شرق النخيل المحاصر بجنود المغول/ في أي أندلس أنتهي؟/ تركت خير ما في: ماضي.

لا تعرف قيمة الأشياء إلا بعد فقدها، وكلما زادت المحنة صارت العلاقة حميمية أكثر، تمثلت قيم الفقد هذه، في قصيدته: "في الرحيل الكبير أحبك أكثر"

مثل: في الرحيل الكبير/ عما قليل تقفلين المدينة/ خف النخيل/ خف وزن التلال/ خفت شوارعنا في الأصيل/ خفت الأرض إذ ودعت أرضها/ خفت الكلمات/ درج الليل/ يعوي ويبكي الزمان الجميل/ ليس لي وطن غيره/ أفرغ الروح من آخر الكلمات.

وقصيدة "الكمنجات" تحمل في طياتها العديد من معاني الفقد والحنين، فهي تعزف أشجى الألحان في رثاء الأوطان والأزمان من هذه الدلالات: تبكي مع الغجر الذاهبين إلى الأندلس/ تبكي على العرب الخارجين من الأندلس/ تبكي على زمن ضاع لا يعود/ تبكي على وطن ضائع/ جيش يعمر مقبرة.

المعاني الخاصة بفلق الصبح:

القضية المحورية التي يتمركز حولها الديوان تتراوح بين هذه الألفاظ الثلاثة ودلالاتها، وبين نسبة ورودها في كل قصيدة من جهة ثانية.

ففي قصيدة الديوان الأولى: "في المساء الأخير على هذه الأرض"، نجد القضية المركزية هي الفقد التي يؤذن بها لفظ المساء، فالمساء نهاية اليوم، انعدام الحياة، فقد الضياء، خفوت الصوت، توقف الحركة، توجس من القادم، الليل المرتبط بمعاني الخوف، الوحشة، الخفاء، الأشباح ... إلخ.

إلا أن الشاعر استشعر الفقد في زمنين منفصلين، جمعت بينهما عوامل مشتركة ومتشابهة، زمن الماضي المتمثل في زمن السقوط، نهاية الوجود العربي في الأندلس، وزمن حاضر تمثل في إقصاء وتشريد الفلسطينيين عن أرضهم ووطنهم، تشابه في الفقد، فمسرح الفقد في الماضي بلاد الأندلس، بينما الفقد الحاضر يحذوه الأمل فجعل مسرحه أرض القصيدة، إذ يقول درويش:

وسنسأل أنفسنا في النهاية: هل كانت الأندلس
ههنا أم هناك؟ على الأرض ... أم في القصيدة؟

أما في قصيدته الثانية: "كيف أكتب فوق السحاب؟" نلحظ أن محورها هو الصوت، يطالعنا على هيئة حنين، كلام، صراخ، صوت عود، غناء، تغريد الطيور، هديل اليمام.

تنوع الصوت يوحي ببلبلة في المشاعر، اضطراب داخلي يعانيه الشاعر، تزداد حدته حينا، فيصير الأمر صراخا أو كلاما ثم تخف نبرته ممزوجا بالحزن فيصير حنينا، تعود النفس إلى طبيعتها فيتحول إلى غناء أو لحن جميل أو تغريد أو هديل.

أما القصيدة الثالثة: "لي خلف السماء سماء" فقد تبلورت حول الحلم والتنبؤ بما آل إليه حال فلسطين، كشف غيبي، فراسة، تكهن، توقع مترقب للنتيجة، للنهاية.

إلا أن الضيق والحزن الذي يعتصر قلبه جراء هذا الحلم لم يفقده بريق الأمل، بل جعله في مطلع قصيدته وفي عنوانها، لي خلف السماء (الملبدة بالغيوم) سماء أخرى صافية تبعث الدفء، وتشع نورا وتسمح بالانطلاق، والعيش بحرية تحت الشمس التي ترسل أشعتها لتدغدغ مشاعر المناضلين وتنير دربهم.

في حين نجد مفاتيح قصيدة "أنا واحد من ملوك النهاية" تدور حول معاني الوداع، تلك اللفظة الموحية بالنهاية، بالفقد، باللاعودة، تتخلل القصيدة وتتغلغل في ثناياها، مؤذنة بالنهاية، محملا مسؤولية ضياع الوطن كل العرب.

وفي قصيدة: "ذات يوم سأجلس فوق الرصيف" تمركزت المعاني حول الفقد، التشرد، الغربة، الجلوس على الرصيف؛ إلا أن هذا الأخير جعل له دلالات متعددة فهو يحمل في طياته الغربة، فالرصيف يكون مأوى للغرباء الذين انقطعت بهم السبل، في مثل قوله:

ذات يوم سأجلس فوق الرصيف .. رصيف الغربة

كما يحمل دلالة الاستقرار في المكان والتملي بمنظر المارة، تأمل قوله في القصيدة نفسها:

كنت أجلس فوق الرصيف على ساحة الأقحوانة
وأعد الحمامات: واحدة، اثنتين، ثلاثين .. والفتيات اللواتي
يتخاطفن ظل الشجيرات فوق الرخام، ويتركن لي
ورق العمر، أصفر، مر الخريف علي ولم أنتبه.

بينما تطالعنا في القصيدة السادسة: "للحقيقة وجهان، والثلج أسود" القضية الجوهرية المتمثلة في روح المؤامرة والخيانة التي تعصف بالوطن، كما اجتثت الحضور العربي في الأندلس، ومهما تعددت مسمياتها فجوهرها واحد، فأطلق عليها الشاعر معاهدة اليأس، خطبة التيه، كما أطلق على من وقعها: ملك الاحتضار، يقول درويش:

ومن سوف يتلو علينا "معاهدة الياس"، يا ملك الاحتضار؟
كل شيء معد لنا سلفا، من سينزع أسماءنا
عن هويتنا: أنت أم هم؟ ومن سوف يزرع فينا
خطبة التيه: "لم نستطع أن نفك الحصار
فلنسلم مفاتيح فردوسنا لرسول السلام، وننجو..."

وفي قصيدة: "من أنا .. بعد ليل الغريبة" تمثلت القضية الجوهرية في السقوط والضياع، تجسد في هواجس الخوف من القادم المجهول، يحمل دلالات الفقد، الغربة، الضياع. يقول درويش:

من أنا بعد ليل الغريبة؟ لا أستطيع الرجوع إلى
إخوتي قرب نخلة بيتي القديم، ولا أستطيع النزول إلى
قاع هاويتي. أيها الغيب! لا قلب للحب .. لا
قلب للحب أسكنه بعد ليل الغريبة.

وكذلك في قصيدة: "كن لجيتارتي وترا أيها الماء" تمحورت القضية الكبرى في الفقد المفضي للهلاك، ولكن هذه المرة فقدان الهوية، فقدان الشخصية، ضياع بين ماض انقضى، وحاضر ينتظر من يعيد بناءه وترميمه. يقول درويش:

... من الصعب أن أتذكر وجهي
في المرايا. فكن أنت ذاكرتي كي أرى ما فقدت.
من أنا بعد هذا الرحيل الجماعي؟ ...
عبثا يستدير الزمان لأنقذ ماضي من برهة
تلد الآن تاريخ منفاي فيَّ ... وفي الآخرين.

كما نلحظ في قصيدة: "في الرحيل الكبير أحبك أكثر" إشكالية البكاء على الأطلال، الوداع، فقد الوطن ورثائه، تحول الجسم بفقد روحه إلى جسد لا حراك به بعد مفارقة الأهل والأحباب. يقول درويش:

... خف النخيل
خف وزن التلال، وخفت شوارعنا في الأصيل
خفت الأرض إذ ودعت أرضها، خفت الكلمات
والحكايات خفت على درج الليل، لكن قلبي ثقيل
فاتركيه هنا حول بيتك يعوي ويبكي الزمان الجميل
ليس لي وطن غيره، في الرحيل أحبك أكثر.

تهدأ نفس الشاعر الجامحة بعد طول معاناة، يستحث السلام، العيش في وئام، يريد أن ينعم بحياة كريمة، يستنشق عبق الحرية من خلالها، في أحضان وطن ينعم فيه بالدفء والحنان؛ يجعل هذا الأمر هدفه ومرماه في قصيدته: "لاأريد من الحب غير البداية" لذا انبرى الشاعر يكثف الصور المفضية إلى هذه القضية، ترقب واضح، أمل قائم، استشراف للمستقبل، استخلاص للورد من براثن الشوك، نيل للشهد من تحت إبر النحل. يقول:

لا أريد من الحب غير البداية، طار الحمام
فوق سقف السماء الأخيرة، طار الحمام وطار
سوف يبقى كثير من الخمر، من بعدنا، في الجرار

وقليل من الأرض يكفي لكي نلتقي، ويحل السلام[1].

اختزلت قصيدة: "الكمنجات" كل قصائد الديوان، وكثفت القضية المحورية وهي ثنائية الفقد، فقد الأندلس وفقد فلسطين.

دراسة فنية للديوان:

- **الصورة الفنية:**

فضة الدمع: (صورة جمعت بين الماضي في صفائه ولمعانه وبياضه وبين الحاضر في حزنه وبكائه ورثائه).

لتبني الحساسين من أضلعي درجا للسماء القريبة: تضمين لآية قرآنية: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2] مما يفيد ضيق الصدر إلى درجة الاختناق بسبب الاكتئاب والحزن المؤذن بالهلاك والموت، الذي مبعثه الفقد.

غني فروسية الصاعدين إلى حتفهم قمرا قمرا: فهذه الصورة قريبة من الصور الأخرى التي رثى فيها الأبطال الذين تحولوا إلى رموز للنضال والكفاح، فهم منارات يهتدى بهم.

تنبؤ بالمستقبل على أحداث الماضي، الصورة تتكرر والتاريخ يعيد نفسه، استدعى الشاعر التراث بأنة حزن وحسرة على الضياع، تكرار الدال والمدلول، تكررت غرناطة رمز الفردوس المفقود، كما تكررت صفاتها ومدلولاتها، يحمل هذا التكرار في طياته دلالات العظمة والجبروت:

... لكن غرناطة من ذهب
من حرير الكلام المطرز باللوز، من فضة الدمع في
وتر العود، غرناطة في الصعود الكبير إلى ذاتها.

كما يحمل التكرار دلالات السقوط والانتهاك، يقول درويش:

(1) الأعمال الشعرية الكاملة، محمود درويش، الطبعة الثالثة 2008، د.ن، د.م.
(2) سورة الأنعام الآية: 125.

... يحك جناح سنونوة
نهد امرأة في السرير، فتصرخ: غرناطة جسدي
ويضيع شخص غزالته في البراري، فيصرخ: غرناطة بلدي.

هذه الدلالات تشير إلى الفقد الأبدي؛ فغرناطة كانت مدينة المرح والغناء، فاغتصبت وضاعت، فصار الشاعر يغني على فقدها وزوالها بأشجى الألحان، وأعظم قصائد الرثاء، بكاء يعصر قلبه، يختفي معه صوت الأمل، وتطغى نبرة الحرقة والفقد والحنين، يقول:

غرناطة للغناء فغني.

صورة توحي بأنه يتنبأ بما سيحصل له قبل أن يحدث، كما حدث في قصة لوركا ونهايته الأليمة؛ إذ تنبأ بنهايته من خلال ذلك المنظر الذي رآه[1]:

واقتلوني على عجل
تحت زيتونتي
مع لوركا

– تكثيف الصورة:

في هذا الجانب نجد صورا مقتضبة من تارخ هذه الأمة وماضيها التليد، وظفه الشاعر في انسجام كامل مع حاضره الأليم، تشابه في الفقد، وتشابه في الوسيلة والأداة، مع تغاير في النتيجة بمحاولة تغيير عدد من المعايير.

نلحظ تكثيف الصورة في استدعائه لحنين صقر قريش لوطن آبائه وأجداده وكأنما وجد ضالته في من يشاركه هذه الغربة المريرة في نخلة وحيدة فريدة بعيدة عن موطنها الأصلي، فعندما يقول محمود درويش:

كلما شيدوا قلعة هدموها لكي يرفعوا فوقها
خيمة للحنين إلى أول النخل ...

(1) لوركا وبيروت؛ جهاد فاضل، جريدة الرياض، الخميس 15 ربيع الأول 1427هـ- 13 أبريل 2006م – العدد 13807.

فربما أراد أن يقيم سرادقات عزاء لتلك النخلة التي عانت الغربة كما عاناها شاعرها عبد الرحمن الداخل الذي يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن أرض النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي[1]

ومن الصور المكثفة المستمدة من ماضي الأندلس الأليم: زفرة العربي الأخيرة: استدعاء تاريخي من الأندلس؛ حيث سميت بهذا الاسم صخرة بالأندلس في إسبانيا أطلق عليها الإسبان اسم ((el último suspiro del Moro) أي زفرة العربي الأخيرة؛ وذلك كناية عن حسرة أبو عبد الله محمد الثاني عشر بعد أن تنازل عن حكمه، ومازال هذا الاسم متداولا إلى يومنا هذا.

وتعود قصته إلى آخر ملوك بني الأحمر وهو أبو عبد الله محمد الصغير أو كما يسميه الإسبان (el chico) فبعد موافقته المذلة على شروط الملك الإسباني فرناندو Fernando ليعقد معه صلحا، وبعد أن دخل الملك الإسباني بقواته إلى غرناطة استعد حينها للرحيل، وفي اليوم نفسه الذي دخل فيه الإسبان غرناطة، غادر أبوعبدالله قصره وموطن عزه ومجد آبائه، وتقدم نحو Fernando وهو جالس على كرسيه، ومد إليه مفاتيح الحمراء قائلا له: "إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في إسبانيا، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا، هكذا قضى الله، فكن في ظفرك رحيمًا عادلاً"، ويقال بأنه ركع له، ثم تقدم صحبة Fernando نحو الملكة إيزابيللا Isabella لتحيتها، وغادر المكان، وعندما أشرف في مسيره على منظر غرناطة انهمر دمعه وأجهش بالبكاء، فصاحت به أمه عائشة:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقّري التلمساني، 327/3.

وتقول إحدى الروايات: إن أبا عبدالله رجا Fernando أن يغلق الباب الذي خرج منه لآخر مرة حتى لا يجوزه من بعده إنسان[1].

شعور بالخزي والعار نتيجة أعمال غير مسؤولة:

أتطلع حولي لئلا يراني هنا أحد كان يعرفني
كان يعرف أني صقلت رخام الكلام لتعبر امرأتي

وتتكرر الصور التي توحي بالخجل، وتعترف بالذنب، حتى صار الإنسان يتفادى اسمه وظله، وينكر فعله ورسمه:

... لا أطل على الظل كي لا أرى
أحدا يحمل اسمي ويركض خلفي: خذ اسمك عني
واعطني فضة الجور. لا أتلفت خلفي لئلا
أتذكر أني مررت على الأرض.

– بناء القصيدة:

– ظاهرة التكرار:

تعد من أبرز ظواهر الديوان، إلا أن الشاعر وظفها بحيث تعطي دلالات تبين عمق المأساة، وفجاعة الكارثة، وما تركته أيدي الغدر والتآمر من تدنيس للأرض والعرض.

غرناطة جسدي (فقد، تدنيس عرض، امتهان وذل)، غرناطة بلدي (تكرار للفقد، فهو فقد للوطن، وفقد للكرامة، فقد قديم: غرناطة، وفقد جديد: فلسطين).

تكرار الاستفهام: من أنا بعد ليل الغريبة؟ (ثلاث مرات) من أنا بعد هذا الرحيل الجماعي؟ فماذا أكون في غد؟ يحمل دلالات البحث عن الذات، فهو يعاني التشرد والضياع، ضياع الذات، وضياع الهوية.

(1) http://ar.wikipedia.org/wiki.

تردد أمر القتل بين القصائد: واقتلوني على عجل/ فاقتلوني على مهل/ أيها الموت كن نعمة للغريب/ تبحث عني لتقتلني أينما وجدتني؛ لأن الموت في سبيل الوطن أعذب ذكرى وأجمل قتل، لذا لا يأبه لأمر هذه الحياة إذا كان المقابل فداء الوطن.

وانتهج الشاعر أسلوب التكرار في قصيدة: "الكمنجات" ليبرز حجم المأساة والنكبة التي حلت بالعرب، ضياع الوطن، تمزق، بكاء على الأوطان، سلب ونهب، غصب وانتهاك، قتل وتشريد، حقد وانتقام.

– الدلالات المعكوسة:

وهي التي تبرز من خلال الألفاظ التي وظفها الشاعر بحيث تفضي إلى عكس ما توحي به، مثل: وننجو: اعتقادا بأن المعاهدة تقودهم إلى النجاة، في الوقت الذي تكبلهم وتذلهم، سلب للأرض والمال، سبي للنساء والأطفال.

ومثل قوله: ماذا فعلت بقلعتنا قبل هذا النهار: فالدرع الذي يحمي من الضربات المحمومة يؤدي التفريط فيه إلى استباحة الحمى.

لم تقاتل لأنك تخشى الشهادة: يبدو في ظاهره جنوحا للسلم، ولكن أن يتحول الأمر إلى خوف من الاستشهاد فذلك الخنوع والذلة والمهانة؛ يقول درويش:

لم تقاتل لأنك تخشى الشهادة، لكن عرشك نعشك

فاحمل النعش كي تحفظ العرش، يا ملك الانتظار.

والسطر الشعري يحمل في طياته دلالة أثيرة منتزعة من التراث، وتتناغم مع اللاشعور الجمعي عند العربي، وهو تضمين لقول أبي بكر الصديق: "احرص على الموت توهب لك الحياة"[1].

(1) عيون الأخبار لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية لسنة 1343 هـ 1925م، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان. 125/1.

– استخدام الأفعال:

لو تتبعنا الأفعال المستخدمة في القصيدة الأولى من الديوان "في المساء الأخير على هذه الأرض" لوجدنا أنفسنا أمام تساؤل وهو: هل الشاعر يتحدث عن الفقد الماضي أم الحاضر؟ يتحدث عن الأندلس أم فلسطين؟

ولكن الواقع أن الشاعر يكره الماضي المأسوي، إنه يتطلع إلى غد مشرق، لذا نجد توزيع الجمل الفعلية مرتبطة باهتمام الشاعر بماضيه أو بحاضره أو بمستقبله[1]، فاستخدامه للأفعال الماضية لا يتجاوز $\frac{1}{8}$ استخدامه للأفعال الدالة على المستقبل (مضارع أو أمر) وباستقراء هذه القصيدة كنموذج نتبين التالي:

أفعال في الزمن الماضي: 04

أفعال في الزمن الحاضر: 23 موزعة كالتالي:

أفعال مضارعة: 11

أفعال مضارع مسبوقة أحرف التنفيس أو الاستقبال: 05

أفعال أمر (يطلب حصول أمر مستقبلا): 07

الخلاصة:

من خلال هذه الدراسة نخلص إلى النتائج التالية:

1. يعتمد الديوان على مرجعية دينية تمثلت في الرؤيا الصادقة التي هي من دلائل النبوة، ومشاكلتها لرؤيا يوسف عليه السلام.
2. اصطبغ الديوان بملامح أندلسية استلهمت مواقف وأحداثا واقعية.
3. كما يحمل عنوان الديوان دلالات تحذيرية خوفا من نتائج مشابهة لما وقع للبلاد الأندلسية.

(1) تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق، محمد عبد الغني المصري ومجد محمد الباكير البرازي، ص: 60.

4. يتشبث الشاعر بالأمل في العودة، ولا يريد أن يرثي وطنه لأن الرثاء فاجعة ونهاية.
5. توجد روابط لا تنفصم بين العرب في بلدانهم الآن، وبين تاريخهم وآثارهم التي خلفوها في الأندلس.
6. يحمل الشاعر الحلم، ويخلق الرؤيا، يجمع بين الداخل والخارج، يقوده في ذلك الإلهام والتنبؤ.